مایاكوفسكي

أنا الأعظم من كُلِّ «دون كيشوت»

مختارات شعريّة

ترجمة وتقديم: رفعت سلاّم

هل يمكن أن تستنفد الترجمة العربيّة شاعراً بقامة مایاكوفسكي الإبداعيّة؟

بل الأَوْلَى أن نسأل: أيُّ «مایاكوفسكي» هذا الّذي قدّمته لنا التّرجمة العربيّة؟ منذ الخمسينيّات؟

إنّه «مایاكوفسكي» آخر: الحزبيّ، السّياسيّ، صاحب الشّعارات «الثّوريّة» الدّعائيّة، الحماسيّة، والبيانات الحزبيّة البرنامجيّة، لا الشّاعر الخلّاق في اكتمال طاقته الإبداعيّة.

أكثر وجوهه الشّعريّة شحوباً وهزالاً؛ ذاك ما صَدَّره لنا مترجمونا «التقدّميّون»، لغاية سياسيّة واضحة: الشّعر أداة سياسيّة، لا أكثر، وغاية تربويّة فادحة: على الشّاعر أن يتّبع السّياسي، والقصيدة أن تتّبع البرنامج الحزبيّ.

لم يكن ذلك «مایاكوفسكي» (وإلاّ.. ففيم كان انتحاره؟)، ولا كانت السّياسة (وإلاّ.. ففيم كانت انهياراتها التّالية، لدينا ولديهم؟)، ولا الشّعر (وإلاّ.. فمن تبقّى منهم في الذّاكرة؟).

هناك «مایاكوفسكي» آخر: تواطأوا عليه ـ هناك ـ إلى حدّ الانتحار، وتواطأوا عليه ـ هنا ـ إلى حدّ التشويه والنّسيان. هو الشّاعر الشّاعر، لا أقلّ.

شاعر يتخطّى حدود الحقبة «الثّوريّة» الّتي سجنوه فيها، والمذاهب الإبداعيّة العابرة والجامدة، والاستخدامات الإيديولوجيّة الّتي وظّفوه فيها، والسّطحيّة والتّفاهة اللّتين ربطوهما، وقدّموهما إلينا باسمه.

ترى.. هل آن أوان إعادة النّظر فيما اقترفته التّرجمة العربيّة بحقّ شاعر شاهق، وحقّنا..؟

هل آن أوان المراجعة، وإعادة الاعتبار لبعض القيم الأصيلة، المهدرة، المنسيّة؟

نقدّم لـ **الآداب** هذه الترجمة الجديدة لبعض من قصائد «مایاكوفسكي» الهامّة، قبل أن تصدر في كتاب، إسهاماً منّا في إضاءة الوجه الحقيقي للشّاعر الرّوسي العظيم.

←

إلى نفسه الحبيبة
يهدي المؤلّف هذه السّطور

الرَّابِعَة.
عِبء ثَقِيل. دَقَّاتُ سَاعَة.
«حَتَّى القَيصَر... حَتَّى الرَّب...»
لَكِن إِلَى أَين
يُسَاقُ شَخصٌ مَا مِثلِي؟
أَينَ سَأَجِدُ مَأوَىٰ؟

هَل كُنت
كَمُحِيطِ المُحِيطَاتِ الصَّغِيرَة،
أَبزُغُ عَلَى أَطرَافِ أَصَابِعِ الأَمواج،
كَالمَدِّ، أَتَطَاوَلُ لأُربِّتَ عَلَى القَمَر.
فَمِن أَينَ العُثُورُ عَلَى امرَأَةٍ مَا
لأُحِبَّهَا بِمِثلِ حَجمِي،
والسَّماءُ أَصغَرُ مِن أَن تَتَّسِعَ لها؟

فَقِيرٌ أَنَا
كَمِلْيُونِيرٍ كَبِير،
وَهوَ أَمرٌ سَيَظَلُّ قَاسِياً.
مَا النُّقُودُ بِالنِّسبَةِ لِلرُّوح؟
لِصٌّ لاَ يَشْبَع.
إِنَّ ذَهَبَ
كُلَّ الـ «كَالِيفُورنِيَا» تِ لاَ يُشبِعِ
قَبِيلَةَ رغَبَاتِي الصَّاخِبَة.

أَتَمنَّى لَو كُنتُ مَعقُودَ اللِّسَان
مِثلَ دَانتِي أَو بِترَارك،
قَادِراً عَلَى إِشعَالِ قَلبِ امرَأَة،
أَن أُحَوِّلَه إِلَى رَمَادٍ بِصَفحَاتِ الشِّعر!
فَكَلِمَاتِي
وحُبِّي
تُشَكِّل قَوسَ نَصر:
خِلاَلَه، سَتَعبُرُ مَعشُوقَاتُ العُصُور،
فِي اكتِمَالِ بَهَائِهِن،
بِلاَ أَثَر!

وإِذَا مَا كُنتُ هَادِئاً
مِثلَ رَعد،
فَكَيفَ سَأُعوِلُ وَأَعوِي!
أَنَّهُ وَاحِدَةٌ مِنِّي
ويَبدَأُ الرُّوَاقُ المُتَدَاعِي لِلعَالَمِ فِي
الارتِعَاد.
وإِذَا
مَا انتَهَيتُ بِالزَّئِير
بِكُلِّ قُوَّتِه المُندَفِعَة -
فَلَسوفَ تَعتَصِرُ المُذَنَّبَاتُ، أَلِيمَةً، يَدَيهَا
وتقفِزُ، فِي حُمَّىٰ، مِن سَطحِ السَّمَاء.

وَلَو أَنَّنِي كُنتُ مُعتِماً كَالشَّمس،
لَثَقَبتُ اللَّيلَ بِأَشعَّةِ عَينيّ،
وَلأَطعَمتُ قَلبَ الأَرضِ الذَّاوِي
نَفسِيَ المُتَوَهِّجَةَ، المُوحِشَة.

لَسوفَ أَمضِي،
مُجَرجِراً حُبِّي الهَائِلَ خَلفِي.
فَفِي أَيَّةِ لَيلَةٍ مَحمُومَة،
يَمتَطِيهَا الهَذَيَان،
وَمِن أَيِّ عَمَالِيقَ وُلِدتُ -
أَنَا، الهَائِل
الَّذِي لاَ حَاجَةَ لأَحَدٍ بِه؟

(١٩١٦)

إلى الجميع وكلّ شيْء

لاَ.
لاَ يُمكِن.
لاَ!
أَنتِ، أَيضاً، يَا حَبِيبَتِي؟
لِمَاذَا؟ مِن أَجلِ مَاذَا؟
انظُرِي، عَزِيزَتِي -
لَقَد أَتَيت،
وَأَحضَرتُ الوُرود،
لَكِن، لَكِن... لَم آخُذ أَبَداً
مَلاَعِقَ فِضِّيَّةً مِن دُرجِك!

شَاحِبَ الوَجه،
تَرَنَّحتُ تَحتَ خَمسِ قَفَزَاتٍ لِلسُّلَّم.
الشَّارِعُ يُدَوِّمُ حَولِي. عَوَاصِف. أَبوَاق.
الإِطَارَاتُ تَصرُخ
مُرعِدَة.
تَلدَغُ الرِّيحُ خَدِّي.
ونَفِيرٌ يَمتَطِي نَفِيراً فِي شَبَق.
فَوقَ جُنُونِ العَاصِمَة
رَفَعتُ وَجهِي،
عَابِساً كَوجُوهِ الأَيقُوناتِ القَدِيمَة.
مِزقَةَ حُزن،
عَلَى جَسَدِكِ كَمَا عَلَى سَرِيرِ مَوت،
أَنهَىٰ قَلبِي أَيَّامَه.

لَم تُلَطِّخِي يَدَيكِ بِقَتلٍ وَحشِي.
بَدَلاً منه،
تَرَكتِه يَهوِي فِي هُدُوء:
«إِنَّه فِي السَّرِير.
وهُنَاك فَاكِهَةٌ ونَبِيذ
عِندَ قَاعِدَةِ السَّرِير».

حَبِيبَتِي!
لَم تُوجَدِي إِلاَّ فِي عَقلِيَ المُشتَعِل.
فَكَفَىٰ!
أَوقِفِي هَذِه المهزَلَةَ الحَمقَاء
ولاَحِظِي:
أَنَّنِي أَطرَحُ عَنِّي
دِرعِيَ اللُّعبَة،
أَنَا،
الأَعظَمُ مِن كُلِّ «دُون كِيشُوت»!

←

هَل تَذكُرين؟
مُثقَلاً بِالصَّلِيب،
تَوقَّفَ المَسِيح لِبُرْهَةٍ،
مُتعَباً.
صَرَخَ الحَشدُ، وَهو يُرَاقِبُه،
سَاخِراً:
«امشِ، أيُّهَا الأَبلَه!»

حَقًّا!
فَلنَحقِد.
لِنَحْقِدْ عَلَى مَن يَستَجدِي رَاحَةً
فِي يَومِه الأَخِير،
فَلنُسرِع ونَلعَنه.
فَلاَ شَفَقَة
بِحُشُودِ المُتَعَصِّبين، المُجبَرِينَ عَلَىٰ فِعلِ
الخَير!

ذَلِكَ مَا يَجرِي!

أُقسِم بِقُوَّتِي الوَثَنِيَّة ـ
هَبْنِي فَتَاةً،
شَابَّة
مِلءَ العَين،
فَلَن أَهدِرَ مَشَاعِرِي عَلَيهَا.
لَسَوفَ أَنتَزِعُهَا
وأَطعَن قَلبَهَا بِالسُّخرِيَةِ عَن طِيبِ خَاطِر.

وعَينٌ بِعَين!

وَالمَحصُولُ يَزِيدُ أَلفَ ضِعفٍ لِحَصَادِ
الانتِقَام!
فَلاَ تَتَوَقَّفِي أَبَداً!
مَذهُولاً، مَشلُولاً،
أَعوِي فِي كُلِّ أُذن:
«الأَرضُ مُجرِمَةٌ، فَلتَسمَعِي،
ورَأسُهَا نِصفُ حَلِيقٍ عَلَى يَدِ الشَّمس!»

وعَينٌ بِعَين!

فَلتَقتُلِينِي،
وَلتَدفِنِيني ـ
لَسَوفَ أَحْفِرُ قَبرِي بِنَفسِي،
وسَكَاكِينُ أَسنَانِي مَشحُوذَة.
مُتَوحِّد،
كَكَلبٍ مُزمجِر،
تَحتَ الأَسِرَّةِ الخَشَبِيَّةِ لِلثُّكنَاتِ سَوفَ
أَزحَف،
مُندَفِعاً لأَعَضَّ الأَقدَام
الَّتِي تَفُوحُ بِالعَرَقِ ومَرَابِطِ السُّوق!

وَلَسَوفَ تَقفِزِين مِن السَّرِيرِ فِي السَّاعَاتِ
الأُولَىٰ مِن اللَّيل.
«مُووو!» سَأَزأَر.
وفَوقَ كَاهِلِي،
قُرُوحُ النِّيرِ الضَّارِي،
وأَعَاصِيرُ الذُّبَاب
سَوفَ تَهبّ.
إِنَّنِي ثَورٌ أَبيَض يُحَلِّق فَوقَ الأَرض!

سَأَنقَلِبُ إِلَى أَيِّل،
وأَغصَانُ قُرُونِي مُشتَبِكَةٌ بِالأَسلاَك،
وَعَينَايَ حَمرَاوَان، دَمَوِيَّتَان.
كَحَيَوَانٍ اصطَادُوه وأَتَوا بِه إِلَىٰ رُكنِ
السَّاحة
سَأَنتَصِبُ بِلاَ رَحمَةٍ
فِي مُوَاجَهَةِ العَالَمِ كُلِّه.

لاَ مَهرَبَ لِلإِنسَان!
قَدَراً وَذَلِيلاً،
يَستَلقِي ـ مُغمِغِماً بِالصَّلاَة ـ
عَلَى صَخرَةٍ بَارِدَة.
مَا سَأَفعَلُه هُو أَن أَرسُم
عَلَى بَوَّابَةِ القَيصَر
وَجهَ «رَازِين»
فَوقَ وَجهِ الرَّب.

فَلتَجفِّي، أَيَّتُهَا الأَنهَار، امنَعِيه مِن إِروَاءِ
عَطَشِه!
احتَقِريه!
وَلاَ تُهدِرِي أَشِعَّتَكِ، أَيَّتُهَا الشَّمس!
تَوهَّجِي!
لِيُولَدَ آلافٌ مِن حَوَارِيَّ
فَيَصُبُّوا اللَّعَنَاتِ عَلَى المَيَادِين!

وَحِينَمَا يَأتِي ـ فِي النِّهَايَةِ ـ هُنَاك،
صَاعِداً، فِي فُتُورٍ، قِمَمَ العُصُور،
آخِرُ أَيَّامِهِم،
فَلَسَوفَ أَتَأَلَّقُ، فِي الأَروَاحِ المُظلِمَةِ
لِلفَوضَوِيِّين والقَتَلَة، كَرُؤيَةٍ دَمَوِيَّة!

إِنَّه الشُّرُوق.
فَمُ السَّمَاءِ يَنفَتِحُ أَكثَر فَأَكثَر،
يَحتَسِي اللَّيل
رشفَةً رشفَةً، ظَامِئاً.
تُومِضُ النَّوَافِذ.
تَنسَكِبُ الحَرَارَةُ عَبرَ الزُّجَاج.
والشَّمسُ تَسِيلُ، لَزِجَةً، عَلَى المَدِينَةِ
النَّائِمَة.

أَيُّهَا الانتِقَام المُقَدَّس!
فَلتَقُدنِي مِن جَدِيد
فَوقَ التُّرَاب
بِدُونِ خُطَى سطُورِي الشِّعرِيَّة
وَأَعلَى مِنهَا.
وقَلبِي هَذَا

←

المُترَعُ حَتَّى الحَافَة،
لَسوفَ أَسفَحُه فِي اعتِرَاف.

يَا رِجَالَ المُستَقبَل!
مَن أَنتُم؟
لاَبُدَّ أَن أَعرِف. أَرجُوكُم!
هَا أَنَا هُنَا،
يَنسَحِقُ كُلِّي ويَئِن،
مَسفُوعاً بِالأَلَم...
فَإِلَيكُم
أَترُكُ بُستَانَ رُوحِيَ العَظِيمَة.

(١٩١٦)

لا جديد

فَتَحتُ
بِقَلَقٍ سَاكِن
عُيُونَ جَرِيدَةِ الصَّبَاح.
شَمَمتُ رَائِحَةَ البارُود
تَتَصَاعَد
مِن خُطُوطِ جَبهَةِ القِتَال.
لاَ أَخبَارَ لَنَا،
فَالعِشرُون السَّابِقَة، هِيَ عَاصِفَةٌ
وَوَابِل.
لَم يَعُد لَدَينَا سَبَبٌ
لِلفَرَح،
بَل وَلاَ
لِلنُّوَاح.
مِيَاهُ التَّارِيخ
مُضطَرِمَة.
فِي امتِدَادَاتِهَا
سَوفَ
نَختَرِق
خَطَرَ الحَربِ المُرِيع
كَسُفُن
تَخترِقُ الأَموَاج
فِي البَحر.

(١٩٢٧)

هكذا تحوّلْت إلى كلب!

وُوو، إِنَّه مُستَحِيل!
لَسوفَ يُمَزِّقُنِي الغَضَبُ كُلِّي، الآن.
غَاضِبٌ، لَكِن لَيس مِثلَك بِتَكشِيرَتِك،
بَل كَكَلبٍ فِي مُوَاجَهَةِ القَمَرِ الأَجرَد
أَنبَحُ فِي الكُلِّ وَالجَمِيع.

الأَعصَاب، رُبَّمَا...
سَأَمضِي،
أَتَمَشَّى...
لَكِن لاَ أَحَد فِي الشَّارِع، أَيضاً، يُمكِنُه
تَهدِئَتِي.
مَسَاءَ الخَير! تَهتِفُ امرَأَةٌ، وَهِيَ تَعبُرُنِي.
إِحدَىٰ مَعَارِفِي...
لاَبُدَّ مِن قَولِ شَيءٍ مَا،
أُرِيد،
لَكِنِّي لاَ أَستَطِيع، كَإِنسَان.

إِنَّه، بِبَسَاطَة، أَمرٌ شَائِن.
أَنَائِمٌ أَنَا، أَم مَاذَا؟
أُحِسُّ نَفسِي أَعلَىٰ:
كَمَا كُنتُ مِن قَبل.
نَفسُ الوَجهِ الَّذِي اعتَدْتُ عَلَيه -
إِذَن، فَلِمَاذَا كُلُّ هَذِه الجَلَبَة؟
ثُمَّ أَلمَس شَفَتِي -
مِن تَحتِهَا، يَا الله،
نَاب!

أَركُض! أُغَطِّي وَجهِي كَمَا لَو كُنتُ
أَعطَس
وَأَندَفِع، فِي سُرعَةٍ مُضَاعَفَة، عَدْواً إِلَى
البَيت،
مُتَحَاشِياً رِجَالَ البُولِيس
لَكِن فَجأَة،
يَضرِبُنِي الصَّمَم:
«أَيُّهَا الشُّرطِي!
ذَيل!»

أَمُدُّ يَداً وَأَتَسَمَّر، كَصَنَمٍ سَاكِن.
فَلاَ أَهَمِّيَّةَ لِلأَنيَاب بِالقِيَاسِ إِلَى ذَلِك.
لَم أَلحَظْه، وَأَنَا أَعدُو:
فَمِن تَحت سِترَتِي،
يَتَجَرجَرُ خَلفِي
ذَيلٌ ضخم - مِكنَسَة! -
هَائِلاً، كَلبِيًّا.

فَمَا العَمَلُ الآن؟
صَاحَ أَحَدُهُم فِي الحَشدِ المُتَزَايِد،
وَأَتَى آخَر، وثَالِثٌ ورَابِع.
شَقَّت عَجُوزٌ طَرِيقَهَا
بَعدَمَا رَسَمَت شَارَةَ الصَّلِيبِ عَلَى
نَفسِهَا،
مُتَوَقِّفَةً عَلَى الرَّصِيف،
تَخطُبُ عَن شَيءٍ مَا حَولَ الشَّيطَان.
وَحِينَمَا مَاجَ الحَشدُ حَولِي، هَائِلاً،
وقَد التَصَقَت بِوَجهِي شَوَارِبُ تُشبِه
المِقَشَّة،
انسَحَبتُ عَلَى الأَربَع -
خِزيٌ أَو لاَ خِزْي -
وبَدَأْتُ فِي النُّبَاح:
بَاو - جِرر - بَاو - وُوو - وُوو!

(١٩١٥)